جوله في معرض الفنون[1]

بقلم نصرى عطا الله سوس

يقول بول فاليرى فى معرض الكلام عن قصيدته « المقبرة البحرية » إنه ليس من حق الشاعر أن يفرض على قارئه معنى خاصاً لقصيدته ولا أن يفسرها له . فالشاعر قد فسر شعوره فى أبياته فما معنى تفسير هذه الأبيات بعد ذلك ؟ إن التفسير لا يكون إلا فى حالة العجز والقصور. فلكل قارىء أن يستخلص مايشاء إلا إذا كان ممن عناهم المتنبي بقوله : —

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مُراً به الماءَ الزُلالا

فالشاعر فيثارة تستنطقها الطبيعة ألحاناً تختلف النفوس فى تلقى موحياتها وتفسير معانيها، والنفس الانسانية أوسع وأرحب من أن يحدها تفسير . وما يجهله الانسان من نفسه ومما حوله أكثر مما يعرفه معرفة اليقين . والفن رسالة توحيها النفس الباطنة أكثر مما توحيها النفس الواعية . والنفس الباطنة كثيراً ما تلغز وترمز دون أن توضح

وكان الموسيقى الكبير « رافيل » يقول : ليس هناك « فنون » بل هناك « فن » ، فن واحد يبدو طوراً ألحاناً خالصة، وطوراً كلمات منظومة ، وطوراً خطوطاً وألواناً ، صور مختلفة تعبر فيها الروح القوية عن مشاعرها وإحساساتها — ومن هنا ترى أن ماقاله بول فاليرى عن الشاعر ينطبق تماما على الفنان . ولما كنت أعتقد أن الفن تعبير قبل كل شيء ، فقد ذهبت إلى معرض الصور وأنا أقول لنفسى : « انتبه . تبين أى الصور ستوجه نفسك إلى نواحى جديدة فى الحياة لم تسعفك تجاربك بتمليها ؟ وأى الصور ستجدد وتعمق إحساساتك بما عرفته وحبرته . . »

* * *

يتفاوت مستوى الإجادة الفنية بين العارضين تفاوتاً كبيراً ؛ فالى جانب الصور القوية الناضجة نجد صوراً تذكرنا بما كنا نلقاه فى كتب الطالعة الابتدائية من صور ؛ ولا ندرى كيف تسربت هذه إلى المعرض . ونسبة العارضين من الطلبة كبيرة جداً . وقد راعنا فقدان الروح الفنية بينهم تماما . والفنان كالشاعر يولد ولا يصنع . ومدارس هؤلاء تعلمهم إتقان الرسم والتعبير ، ولكن التعبير عن ماذا ؟! هذا ما نحب أن نسأل عنه فنانى الجيل المقبل .. وأغلب من حادثتهم من العارضين لا يهتمون إلا بطريقتهم فى رسم الصورة. وهذا قصور بارز ، ولعله أكبر آفة تحل ببعض الفنانين المعروفين . فكل يريد أن يكون زعيم مدرسة وصاحب طريقة خاصة يعرف بها وتنسب اليه. وهذا جيل ومعقول بشرط أن يكون تلقائياً ويتطلبه مثل الفنان الأعلى ومنزعه. وأما أن يركب الفنان الشطط لالغاية أكثر من الشهرة والاختلاف عن غيره ، فهذا مالا يرضاه الفن . فلست أدرى ماالذى يدعو الأستاذ راغب عياد مثلاً إلى أن يقصر فنه على دراسة الأسواق وما شاكلها من نواحى الحياة المصرية التى سيأتى عليها الزمن بعد حين . قيل لنا إن عياداً يود أن يخلق فناً محلياً . وهذه رغبة نبيلة دون شك ، ولكن الفن المحلى الذي يموت لتوه إذا نقل إلى بلد آخر ، غير جدير باسم الفن . ومحلية الفن لا تتنافى مع عالميته . فالفن الإغريقى القديم له مميزات خاصة (وكذا المصرى القديم والإيطالى فى عهد النهضة) تمليها البيئة التى نشأ فيها ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فناً عالمياً يدرس ويستوحى فى كل مكان

ويظهر أننا نخطيء فهم كلمة « محلى » كثيراً . فالفنان عالمى الذات بطبعه وروحه ؛ والفن القوى يحقق شرطين : (١) القدرة على البقاء والاستمرار (٢) العالميه . ولكن عندما يعمد الفنان إلى رسم رقصات روحه وهمسات نفسه مضطر إلى أن يختار لها أشكالا وألوانا مما حوله أى من البيئة التى يعيش فيها . وكذا « روح العصر » تدفع الفنان إلى أن يبرز ويؤكد بعض نواحى الحياة ويترك بعضها . فهو يبين لنا تفاعله مع عصره بتوجيه

(١) معرض القاهرة الثامن عشر . افتتح يوم ١٦ ابريل سنة ١٩٣٨ وتنتهى مدته يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٨

المسرح عن كل شيء عداه . ويسرني أيضاً أن أرى هذه المسرحية تشغل تفكير نخبة من الأدباء أمثال أمين الريحانى ، وميخائيل نعيمة ، وحافظ محمود ، وكامل محمود حبيب ، والأب العلامة الكرملى ، وصديق شيبوب وغيرهم . وأعجب وفى مصر نخبة من الأدباء الذين يجردون أقلامهم لكل حادث أدبي ، كيف أن هذه المسرحية الطريفة لم تحرك أقلامهم بالكتابة لها أو عليها ، والرواية كما قلت من قبل حدث فى الأدب العربى الحديث ! زكى طليمات

الأنظار إلى ما هو خافٍ ، وتشنيع ما هو مستهجن ، وتمجيد كل ماهو نبيل ، وهكذا . ولكن عناصر الحياة هي هي في كل زمان ومكان . والبيئة والعصر عاملان لا يكتمل فن بدونهما ، ولكن جوهر الفن واحد في كل زمان ومكان

وحسبنا بعد ذلك أن نذكر أهم الفنانين :

لامراء في أن الأستاذ محمود بك سعيد أبرز العارضين وأعمقهم شاعرية وإحساساً ، وفنه يفرض نفسه عليك فرضاً : فن ممتلئ قوة ودماً ، ورسوم تكاد من فرط حيويتها تترك لوحاتها وتشارك الأحياء حركة وكلاماً . والفنان يشعرك أنه يحب الحياة حباً لا نهاية له ، ويمجد جمالها تمجيداً تقصر عنه الكلمات وتقربه الألوان إلى النفس بعض الشيء ، وألوانه القوية تقول لك إنه يعتقد أن الحياة جميلة غنية محببة عميقة لا تعرف نفسه سبيلاً إلى الارتواء والاكتفاء مهما عب من معينها . وتجتمع عند الأستاذ سعيد خواص قلما تجتمع عند غيره ، أهمها التوفيق بين التعبير العاطفي القوي مع محاكاة الطبيعة . وفنه خير مثال للتعريف القائل بأن الفن هو الطبيعة وشعور الفنان مجتمعين

ولا أعرف أقصداً أم صدفة جاءت لوحات السيدة إيمي نمر قبالة لوحات سعيد بك ، وفن السيدة الفاضلة فن قوي ولكنه نقيض فن سعيد تماماً . ألوان سعيد تدل على الحيوية والفرج ؛ أما فن السيدة ايمي فهو قاتم حزين ، وألوانها توحي للنفس تأمل الفيلسوف الزاهد الذي يركز بصره على الناحية القاتمة من الحياة . وأي نفس لا تهش لمنظر البحر ويطربها انعكاس الألوان والأضواء على سطحه ، وتسلسل أنغامه ، وجيشان أمواجه وما ترسم على وجهه الريح من رموز وأسرار ، ولكن الفنانة تتغاضى عن كل هذا وترسم لك « منظر تحت سطح البحر » وماذا تعرض عليك ؟ عدة هياكل عظيمة « ومنظر طبيعي » يمثل الخريف بأقفاره وسهومه ووجومه ، « والأمومة » يخالط الألم فيها البؤس والشقاء وعبء الأمومة مع ما فيها من حنان ، « ومكتوفة اليدين » أبلغ ما يمثل لك الحيرة والبؤس والأسى وتفاهة الحياة مجتمعة — ولوحاتها تدل على أن طاقتها الفنية عميقة جداً

وفن السيدة برسيلون توس (مصرية) فن ناضج ، ويتمثل نضوجها في اختيار الألوان بحيث تعبر عن الجو العاطفي للصورة . وأحسن مايبدو هذا في « الكهولة » حيث يغلب اللون الأصفر المزوج بالأحمر ؛ وفي « الرجل والزجاجة » — أما « رأس صعيدي » فتمثل روح الوجه القبلي تماماً ، و « رأس امرأة مصرية » تكاد تنطق روعة وشباباً . وبالجملة فهي رسامة شاعرة

وقد قال لي بعض من يعرفون الأستاذ حسين محمد بدوي إنه لا يعرض « فناً » وإنما يعرض طريقته الخاصة . وعلى كل فرسومه تدل على مقدرة فائقة ، ولكن هذا ليس كل شيء ، فما فائدة مقدرة لا يعرف صاحبها كيف يستخدمها . وطريقة الأستاذ لا تتفق إلا وموضوعات وحالات نفسية معينة لو تعدتها إلى غيرها تضر ولا تنفع . ولو عنى الأستاذ بهذه الناحية لكان فنه أوقع وأمتع وأبدع . وفن الأستاذ نجيب أسعد يغري بالمقارنة بفن الأستاذ حبيب جورجي ؛ إلا أن الأخير أرحب روحاً وأعمق نفساً . فمناظر الكنائس والأديرة التي رسمها الأستاذ جورجي يبدو فيها جلال الدين وقداسته . أما تلك التي رسمها الأستاذ أسعد ففيها تبدو الوحشة والكآبة التي تخيم على مثل هذه الأماكن . وهناك رسوم تدل على تمكن أصحابها من الرسم ، ولكن تنقصهم الرحابة الفنية .

وأهم هؤلاء هم الأساتذة محمد محبوب ، ولبيب أيوب (وحسبه « العود » فهي لا عيب فيها) ونعم جاب الله ، وإن كانت رسوم الأخير تدل على فهم تام بطبيعة الألوان وذوق دقيق في اختيارها

وهناك طبقة أخرى اكتفت بأن حاكت الطبيعة محاكاة تامة ، ولوحاتهم تدل على تمكن من الصنعة ودقة ملاحظة ، ولكن لا أثر للفن فيها ، لأن الفن شيء والمحاكاة الفوتوغرافية شيء آخر . وأبرز هؤلاء الأساتذة ادموند سوسه ، وهيدايت دانش وجورج صباغ

وعدد الصور الآدمية Portraits في المعرض كبير جداً . وهذه ناحية من نواحي الفن التي يقل فيها المجيدون ، لأن الغرض منها ليس نقل الملامح فقط بل نفسية الشخص ومميزاته الخلقية . ولذا فالفنان مجبر على دراسة من يتصدى لرسم صورته دراسة نفسية عميقة قبل أن يتناول ريشته . ولهذه الكثرة تفسير نفسي مقبول ، وهي أن النوازع النفسية التي تدفع الفنان إلى رسم الأشخاص تختلف ، وبعض هذه الدوافع تنتج فناً أصيلاً ، وبعضها ينتج فناً زائفاً — مثال هذه الأخيرة حب المدح وحب السيطرة والملك . والفنان الأصيل يحلل مشاعره قبل أن يرسم

وهناك فنان شاب هو موريس فريد ، ولفنه ميزات بارزة أهمها اندماجه النفساني في جو الموضوعات التي اختارها للوحاته ، وألوانه